

حوار الحضارات*

(روجيه غارودي)

مراجعة محمد غشام

خلال هذه المساحة الزمنية التي تشكل عتبة أو معبراً إلى مرحلة جديدة وربما إلى عالم جديد وتاريخ آخر. . يلبث إنسان هذا (العام. .) وقد تملكته الحيرة والرغبة في موقف المتأمل والمستتج ولو قدر ما يتيح له الحدس أو الاجتهاد، مما أطلقه منظرين أو مؤرخون أمثال فوكوياما وهنتغتون حول (نهاية التاريخ) و(صدام الحضارات).. وخلال هذا الواقع الراهن وحيث تعصف أحداث عالمية في مهب العولمة والسيطرة، وهيمنة القوي الجبار على الضعيف (المتخلف) وخاصة ما يجري في منطقة بحر قزوين. . والتذرع بذرائع يراد بها التوسع والسيطرة على مزيد من ثروات الأرض. . في مناخ كهذا تتحقق نبوءات أو ربما تخطيطات الغرب الاستعماري ويبدأ المخاض من خلال أولى حروب القرن في أفغانستان ربما لتكون بداية لتطبيق تلك النظريات، وليكون صدام الحضارات نتاجاً غير عفوي ولا بريء يتفاعل في مصهر السياسات الغربية والصهيونية لإحلال (الإسلام) كعدو مستهدف مستقبلي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانحلال النظرية الشيوعية، ولتبدأ حرب صليبية جديدة بشعارات خادعة ولتأليب من هم في دار الإسلام والعرب على بعضهم البعض وقتل بعضهم الآخر. .

أما الصورة الزاهية المشرقة للإسلام فلم تتوهج سوى في نفس قلة من مفكري الغرب الأحرار وعلى رأسهم المفكر الفرنسي روجيه غارودي الذي

(*) روجيه غارودي: حوار الحضارات. منشورات عويدات 1977. وقد طُبع بعد ذلك عدة مرات؛ آخرها عام 1995.

كان على صلة بالفكر الإسلامي منذ الأربعينات ثم ما لبث أن أَلَّف العديد من الكتب التي تمجد قيم (الإسلام) وتعاليمه واعتباره طريقاً سوياً لفلاح الإنسان ديناً ودنياً. وهو الذي قال في مقدمة كتابه (حوار الحضارات): إنني انطلاقاً من فنون الإسلام ومساجده إنما شرعت أفهم عظمة العقيدة الإسلامية بتأكيداتها الجذري على التعالي وفي الوقت نفسه ومن خلال (القرآن) وعبر الشعر الصوفي الخارق على انفتاح، وعلى قبول لا يقتصر على سائر أسر الإيمان الإبراهيمي وحسب بل يمتد إلى إمكان حوار خصيب مع حكمة آسيا والهند واليابان. وآمل أن يسهم هذا الكتاب (حوار الحضارات) في توسيع الحوار وتعميقه والاستعاضة عن هيمنة (الغرب) الثقافية المفروضة خلال أربعة قرون من الاستعمار بتجربة رائعة هي تجربة الثقافة العالمية الشاملة.

أما كتاب «حوار الحضارات» الذي صدر قبل ثلاثة عقود؛ فلقد كان ويبقى نهجاً وأفقاً للفكر الغربي أو العقل الغربي حين يتصل بشمس الإسلام عقيدةً وحياةً وأخلاقاً وقيماً ووعداً بالخلاص... خلاص الإنسان من وهدة أخلاقية ولو اكتسبت زخارف التكنولوجيا والمدنية. ولكن لتظل في جوهرها تجربة كونية تشمل الكرة الأرضية بأسرها. شهادة فرح بالفن الإنساني الذي حملته إلى ثقافات لا غربية وأناس من آسيا، ومن الأصقاع الإسلامية ومن أفريقيا ومن أميركا اللاتينية. وهو... أي الكتاب شهادة تتناول ما بحث عنه غارودي وما اعتقد أنه اكتشفه في كل ثقافة من تلك الثقافات فلدى كل إنسان من هؤلاء الناس شهادة بالطابع الإلهي.

ونظراً لأن الإيديولوجية هي التي تحدّد مسار الحضارات وهي التي تشكّل الصورة والبنية النامية لها؛ فإن غارودي قد استنتج في كتابه حوار الحضارات أن الغرب (عرض) وأنه ينمو نمواً (فاوستياً) متأهلاً بتوسع المنطق الأرسطوي العقلي والعملي... ولقد اتبعت الحضارة الغربية توجيه موضوعات ثلاثة حتى نهاية القرن العشرين:

- 1 - موضوعة رجحان الفعل والعمل المتواصل.
- 2 - موضوعة رجحان جانب العقل.
- 3 - رجحان (اللانهائي السيء) أي اللانهائي الكمي وحسب.

وحسب تصور غارودي فإن مطلب (حوار الحضارات) إنما يهدف إلى الإسهام على الصعيد الثقافي في بناء نظام عالمي جديد، يمثل ما يدعو إليه الأب (ليبرت) مؤسس (الاقتصاد والمنزع الإنساني) وبحسب روح تفكيره. وأن (البيان من أجل إنسانية متحررة) الذي أصدرته مؤسسة (الاقتصاد والنزوع الإنساني) سنة 1976 يسعى إلى تشكيل السلطة المضادة وهي سلطة مشخصة ضرورية لإتمام النموذج الحالي للمجتمع. ويعلن غارودي أن المشكلة الأساسية في الثقافة الحاضرة هي القضاء على التصور التسلطي في الثقافة الغربية وأن نستعيض عنه بتصوير (سمفوني). أو نتطلع بأسئلتنا إلى حكمة العالم اللاغربي. وقد أصبحت المشكلات تطرح من الآن على المستوى العالمي ولا يمكن أن تحل إلا على المستوى العالمي وذلك بالانخراط في حوار حضارات حقيقي مع الثقافات غير الغربية.

ويكتشف غارودي النظرة الغربية تجاه العالم الثالث إذ يقول: ولئن حسبنا أننا نملك وحدنا الحقيقة بحسب موقفنا المستمر بوصفنا (غربيين) بدا لنا أن (الآخرين) الذين لا يرتبطون بالغرب بدائون سيئو النية، أو مرضى وأن واجبنا هو أن نهب لبرئهم أو قمعهم. وأن اللامعرفة واللافعل قانونان رئيسيان في رؤية عن العالم تختلف عن رؤيتنا اختلافاً جذرياً. وهذا المنظور الذي ينتزعنا من (أنا الصغيرة) يتيح لنا تجاوز المشكلات الزائفة المطروحة في الغرب بصدد الحرية. فهلا تستطيع رؤية العالم اللاغربية أن تصحح تنكب (غربنا) بصورة مفاجئة عن جادة الصواب.

وهنا تتأكد حقيقة وصف السياسة الغربية بأنها تكيل بمكيالين ولا تنظر إلى الآخر بنفس النظرة الشمولية التي تتوحد معه من منطلق ومبدأ إنساني عام، ولتنحرف وتنحاز باتجاه تأجيج الصراع العنصري بين الحضارات. ولكن غارودي يرى أن اللقاء بين الحضارات أمر ممكن وأن النماذج القديمة لأكبر دليل على ذلك. وأن تأملها يتيح معرفة أفضل لشروط إمكان لقاء جديد ووسائل تيسيره والإغناء الإنساني المرتقب منه.

فمن قديم كانت أراضي الدلتا الغرينية في مصاب الأنهار الكبرى وهي تيسر أسباب الزراعة والحياة الحضورية سرعان ما غدت مراكز حضارية متألفة

أفادت من الإخصاب المتبادل بلقائها. وهي دلتا (النيل) و(الفرات) و(دجلة) و(الهندوس) و(الغانج)، وسرعان ما اتصلت هذه النهور بعضها ببعض، وقد أتاح البحر من ناحية أخرى قيام علاقات بين حضارات (ما بين النهرين) وحضارات وادي الهندوس.

إن نظرة غارودي التي تستوحي الانفتاح والحوار الغربي مع سائر الحضارات ترى أن المشكلة هي مشكلة إحداث تغيير جذري في النموذج الغربي في علاقته مع الطبيعة بفضل حكمة الصين وأفريقيا والهند والإسلام. مشكلة إقامة توازن في مفهومه ذي النزعة التقنية بالإفادة من تجربة حية شعرية وصوفية هي تجربة اتصال الغرب ومشاركته في طبيعة لا يملكها بل تملكه. وأن (حوار الحضارات) هذا ليؤلف مرحلة لا تزيد على الصعيد الاقتصادي في التساؤل الاقتصادي وفي التغيير الجذري لطراز تنمية الغرب وفي اكتشاف غايات أخرى (للتنمية) وفي الوصول إلى تعريف آخر لمعنى التطور والنماء.

هذه نظرات مفكر غربي منصف يقف الموقف المضاد للنزعة الكولونيالية التسلطية التي لا ترتضي الحوار سبيلاً لتكامل الحضارات ولقاءاتها من أجل خير الإنسان وحرية ورقية، وأن (حوار الحضارات) الملمح إليه يكافح كما يقول غارودي (أنا الصغيرة) المتبجحة ويبرز واقع (الأنا) الحقيقي الذي هو بالدرجة الأولى علاقة بالآخر وعلاقة بالكل. وهو يساعد على الانفتاح في الصعيد الثقافي على آفاق لا نهاية لها في المنظور الذي توحى به في جميع المجالات أحدث تجددات الثقافة الغربية. وأن الاستمرار في اتباع المنهج المكيافيللي من حيث استخدام السيطرة الرأسمالية قد دمر كل شيء كما لو أن الغايات كانت معطاة بصورة ضمنية في إرادة السيطرة والريح وخلق الأسواق القومية وبما فجرت به (الأمم) مسيحية العصر الوسيط.